الفــرار من الأقــدار

في شرفة القصر وقفت الأميرة الجميلة ذات العينين الزرقاوين كزرقة السماء الصافية ، ترنو إلى الطبيعة الغَنَّـاء بلهفة المشتاق ، وكأنها تغازلها بصمتها الوقور، ونظراتها الحالمة ، وهمساتها الرقراقة.. يهب على محياها الوضيء بين الحين والحين نسيمٌ عليلٌ يداعب خصلات شعرها الذهبي الناعم المسترسل على خديها المتوردين، فتهز رأسها في شموخ لتعيد شعرها الزاحف في دلال فوق عينيها وجبهتها الغراء إلى حالته الأولى ..!

تطرّق إلى سمعها صوت بدوية عجوز تترنم بأهازيج ليست غريبة على مسامعها ، ألقت ببصرها خلف سور الحديقة لترى امرأة سمراء نحيفة ترتدي جلباباً أسود، وقد اعتصبت بعصابة مزركشة، وفوق رأسها استقرت قُفَّة من الخوص مغطاة بجلباب لا يعرف لونه الأصلي.

أصغت إليها في اهتمام فالتقطت أذناها هذه الجملة التي ترددها تلك المرأة :

ـ أبين زين .. ووشوش الودع ، واضرب الرمل.

دفعها الفضول لمعرفة سر هذه المرأة ، فنادتها من شرفتها ودعتها للدخول إلى القصر.. ثم دعتها إلى غرفتها وسألتها في اهتمام:

ـ أيتها البدوية .. أتعرفين حقاً ذلك المسطور في الغيب؟!

أجابت البدوية :

ـ ليس كل الغيب يا مولاتي بل بعضاً منه.

ـ كيف ، والغيب لا يعلمه إلا الله ؟!

ـ صحيح ما تقولين يا مولاتي، ولكن الله سبحانه يكشف عن بعض الأسرار لبعض خلقه، ألم يوحِ إلى الخضر بأسرار لم يكن موسى عليه السلام على علم بها ؟!

ـ بلى .. ولكن الخضر عليه السلام نبي ، أتزعمين أنك نبية؟!

ـ حاش لله يا مولاتي، ولكنها مهنتي التي ورثتها عن آبائي .. امتهنتها لأقتات من ورائها، وحيث إن لكل مهنة سراً ، فأرجو ألا تسأليني عن سر مهنتي .

ـ على أية حال فليس يهمني إن كنت ملاكاً أو كنت شيطاناً، كل ما يهمني أن تحسني قراءة طالعي وإلا شكوتك للملك وأنت تعلمين من هو الملك..!

ـ أمرك يا مولاتي..!!

أخذت المرأة قطعة من الودع .. جعلت تنفث فيها ثم تهمس إليها.. لم تمض برهة حتى اصفر وجهها، واستقرت غمامة من الكآبة السوداء فوق وجهها الذابل، حدقت في وجهها الأميرة، وارتسمت على ملامحها الرقيقة علامات القلق والرهبة والخوف من المجهول.

سألتها وفي قلبها تتأجج نار الوساوس:

ـ ما وراءك أيتها المرأة ؟!

نظرت إليها المرأة نظرة إشفاق وقالت:

ـ لاشيء يا مولاتي.

ـ أراك تكذبين .. عيناك تنطقان بما تخفينه وراء لسانك، أفصحي عما ترين .

ـ أرى يا مولاتي أن القدر يخبئ لك ما لا تحمد عقباه.

ـ أفصحي .. أفصحي أكثر أيتها البائسة.

ـ أخشى غضب مولاتي .

ـ لك الأمان ، ولكن إياك والكذب ..!

ـ لن أقول إلا ما أرى .. ستكونين يا مولاتي سبباً في تعاسة مولاي الملك وحزنه الدائم.
ـ كيف .. وليس لي في الدنيا سواه ، وليس له في الدنيا سواي؟!
ـ ستكونين يا مولاتي سبباً في فضيحة تهز عرشه، فيشقى على أثرها حيناً من الدهر، ستكون حكايتك على كل لسان ، يتحدث بها القاصي والداني ، ويتناقلها في ترحالهم الركبان.
ـ كفى .. كفى أيتها الشمطاء ، أنت تكذبين ، ألا تعرفين من أكون ؟! أنا الأميرة "نور الصباح" ربة الصون والعفاف، وما أرى حديثك إلا هذياناً وتخرصاً.
ـ آمل يا مولاتي ألا يكون صدقاً .
خرجت العجوز، وهي تتلفت يميناً ويساراً كالشاة المذعورة .. تخشى بطش الأميرة الغاضبة.. لم تلتقط أنفاسها إلا بعد أن وجدت نفسها خارج القصر ، غذت الخطى حتى توارت عن الأعين.
جلست الأميرة تسترجع كلمات الكاهنة أو المنجمة ، وتسأل نفسها في حسرة وألم :
ـ أيمكن أن أكون سبباً في شقاء أبي ؟! كيف وأنا ابنته الوحيدة ، وقرة عينه ، وجنته التي يأوي إليها لينعم بظلالها الوارفة، ومستودعه الذي يبث بين جنباته أسراره وهمومه وأحزانه؟!
أيكون جمالي سبباً في تعاستي، ووصمة عار لأبي؟! ومن ذا الذي يجرؤ على الأميرة ؟!
لا .. لن يكون أبداً .. لن أنتظر حتى تقع الكارثة .. سأفرّ من القدر المحتوم، وأحمى أبي من لظى الفضيحة التي تتربص به ، لابد أن أنهي هذا العذاب ، وأريح نفسي وأبي من شر مستطير.
اختارت وقتاً تهدأ فيه حركة الخدم والحشم داخل القصر .. علقت حبلاً في سقف غرفتها.. وقفت على كرسي وضعته تحت الحبل

المدلى، مدت عنقها الطويل حتى أدخلت رأسها في الحبل.. جعلت تضيق الخناق حول رقبتها ، ركلت الكرسي برجلها .. ابتعد الكرسي عنها فترنح جسدها المعلق في الهواء لحظة ثم سقطت على الأرض.

دخل الملك ليطمئن على ابنته قبل أن ينام فوجدها ملقاة على الأرض وفي عنقها جزء من الحبل الذي انقطع .. جأر بصوت ارتجت له جنبات القصر .. هرع إليه الخدم والحشم ووصيفات الأميرة .. قلّبها الملك ذات اليمين وذات الشمال وهو يئن ويهذي ويناديها ، وهي لا تحرك ساكناً ؛ إذ باتت في عالم غير العالم الذي يعيش فيه .. همس الطبيب في أذنه بكلمات جعلته ينفجر بالبكاء والنحيب، وينخرط في حزن أبدي .

بعد سويعات دفنت الأميرة الجميلة ودفن معها سرها ، وأقيم في القصر الملكي سرادق العزاء الذي توافدت إليه الوفود من كل حدب وصوب، لكن همسات الناس في البيوت، والشوارع، والطرقات لا تتوقف منذ وصل إلى أسماعهم أنباء تلك الفجيعة.

أفاقت الأميرة من الغيبوبة التي ألمّت بها عندما قررت الانتحار لتجد نفسها في حجرة مظلمة، وقد لفت من رأسها إلى أخمص قدميها بالحرير الأبيض، أيقنت أنها مقبلة على سؤال الملكين، ولما لم يأتها أحد قامت من رقدتها فأحست باختناق شديد .. مدت يديها فنزعت الثوب عن وجهها.. تنفست الصعداء وجعلت تحمد الله على نجاتها من موت محقق .. قرعت باب القبر المشرع لكن أحداً لم يسمعها، كادت أن تستسلم للموت الذي أتاها هذه المرة على غير رغبة منها، استعانت بربها وحاولت من جديد قرع باب القبر فسمعها هذه المرة رجل اعتاد أن يمر على المقابر في هذا الوقت ليدعو لأهلها وليسقي النباتات والشجيرات الموجودة فيها .

قرع الباب من الخارج ليتأكد أن ثم أحداً بداخل القبر يستغيث، فلما ترامى إلى سمعه صوت الباب يقرع من الداخل أسرع بكسر باب

القبر، فخرجت الأميرة مسرعة وهي تمزق الثوب عن عنقها، تحاول أن تلتقط أنفاسها المحتبسة، وحين رآها الرجل أغشي عليه.

خرجت من المقابر تتعثر في أكفانها، وكلما رآها أحد حسبها عفريتة من الجن فتراه يجري كالمجنون أمامها حتى يصل إلى بيته فيغلقه على نفسه، أوصدت في وجهها كل أبواب المدينة، حتى باب القصر أغلق في وجهها، لا أحد يصدق أنها الأميرة "نور الصباح" .

وقفت تتأمل باب القصر من الخارج للحظات، وقد اغرورقت بالدموع عيناها، فألقت على القصر نظرة وداع حارة ثم اتجهت إلى خارج المدينة التي خلت شوارعها من المارة .

ظلت تسير على قدميها الحافيتين حتى دميتا من الأشواك والحجارة وحتى أصابها الإعياء فآوت إلى كوخ صغير وارتمت على الأرض أمام بابه .. خرجت من الكوخ امرأة في الخمسين من عمرها .. أصابها الذعر حين رأت هذه الجثة أمام كوخها، فإذا بالجثة تتحرك وتتكلم وتطلب منها الماء لتشرب بعد أن مر عليها يومان لم تذق خلالهما شيئاً من طعام أو من شراب .

أشفقت عليها المرأة، وأدخلتها الكوخ ، قدمت لها طعاماً وشراباً، وألبستها ثياباً من ثيابها، وجلست تسألها عن حكايتها، قصت عليها الأميرة أحداث قصتها من غير أن تخبرها بأنها أميرة وابنة ملك، طلبت منها المرأة أن تظل معها تؤنس وحدتها وتعينها على الحياة الشاقة، وافقت الأميرة وعاشت في كنف هذه المرأة الرحيمة، وفي ذلك الكوخ المتواضع حتى عاد ابن صاحبة الكوخ من رحلة التجارة التي استغرقت شهوراً .

خفق قلب التاجر الشاب للأميرة ، ولمعت عيناه بالحب الطاهر البريء ، سأل أمه عنها، فقصت له قصتها .. طلب من أمه أن تحادثها في أمر الزواج ، وافقت الأميرة ، وعاشت مع زوج لم

يكن يخطر لها على بال حينما كانت في قصر أبيها تترقب في دلال أميرها المنتظر، وفارسها المغوار.

لم تتمرد الأميرة على الحياة الجديدة التي لم تعهدها من قبل، تلك الحياة المفعمة بالكد والشقاء والأمل في غد أفضل .. تلك الحياة البسيطة التي يجوع فيها المرء يوماً فيسأل الله ، ويشبع آخر فيحمد الله.

زوجها رجل قانع بما في يديه ، راضٍ بما قسمه الله له ، لم يكن يحلم في يوم من الأيام بزوجة أجمل ولا ألطف ولا أرق من هذه الزوجة التي اختارها الله له ، وساقها بكرمه إليه ، وهي راضية كل الرضا سعيدة أيما سعادة بهذه الحياة التي شعرت فيها بوجودها، وأحست من خلالها أن لها دوراً في الحياة ينبغي أن تؤديه على أكمل وجه ، وهاهي تشقى وتتعب بعد حياة الترف والدعة التي كانت ترفل فيها .

مرت الأيام هادئة رتيبة ساكنة حتى جاء التاجر الشاب ذات يوم فوجد أحد جدران الكوخ قد تعرض للصدع وأصبح معرضاً للسقوط .. دفعه الخوف على أمه وزوجته إلى أن يسرع في إعادة بناء الكوخ على أساس متين وتوسيع رقعته ، اجتهد ثلاثتهم وشمروا ساعد الجد ، وبينما الأميرة منهمكة في عملها تحاول أن تنزع حجراً كبيراً من إحدى زوايا الكوخ إذ عثرت على بعض الأواني الفخارية تحت الحجر ، مدت يدها لتفتح الإناء فإذا الإناء مملوء بالدنانير الذهبية، صرخت تنادي زوجها فأقبل إليها مهرولاً، ألجمته المفاجأة ، ووقفت أمه في حالة من الذهول لا تكاد تصدق عينيها ، طفق يقبل زوجته ويقول لها :

ـ بوركت يا زوجتي يا وجه الخير يا نهر السعد ؟! لقد تغيرت دنياي مذ عرفتك ، لقد غدت تقبل عليّ بوجه طلق بعد أن كانت تلقاني

بوجه عبوس قمطرير، سأبني لك قصراً يليق بك في المكان الذي تختارين المقام فيه .

اختارت الأميرة موقعاً على حدود المدينة التي يعيش فيها أبوها الملك ، وطلبت من زوجها أن ينشئ لها في هذا المكان قصراً يفوق قصر الملك اتساعاً وعلواً ورونقاً وفخامة.

وذات يوم خرج الملك مع وزيره يتابع أحوال الرعية فإذا بالقصر المنيف الذي يفوق قصره يجذب إليه أنظار الملك ، سأل وزيره في دهشة:

ـ من صاحب القصر؟!

أجاب الوزير :

ـ غريب لا أعرفه يا مولاي.

ـ كيف يقيم في مملكتنا من لا تعرفه أيها الوزير؟! هلم بنا إليه لنعرف قصته ؟!

كانت الأميرة الحسناء على موعدها مع نسيم الأصيل في شرفة قصرها الجديد ، وإذا بها ترى الملك ووزيره قادمين نحو القصر فنبهت زوجها لارتداء أفخم ثيابه ليبدو أمام الملك كأمير من الأمراء النبلاء، نزلت لاستقبال الضيفين ريثما يأتي زوجها .. نظر إليها الملك نظرة طويلة كمن يحاول أن يسترجع صورتها من سراديب ذاكرته المظلمة.. كانت تتمنى أن يتذكرها الملك فمنحته عينيها الصافيتين ليرى في بريقهما صورة ابنته "نور الصباح" لكنها سرعان ما قطبت جبينها، وحولت عنه بصرها حينما لاحت في عينيه نظرة غير أبوية، استسقاها فأسرعت لإحضار الماء لكنها لم تعد بالماء وإنما أمرت خادمتها بتقديم واجب الضيافة، وتوارت عن الأعين .

نزل زوجها في أبهة الأمراء شامخ الأنف مرفوع الجبين، رحب بالملك ووزيره، وتجاذبوا جميعاً أطراف الحديث ، استدرجه

الملك حتى علم أنه لم يكن أميراً بل كان تاجراً من التجار قد بسط له في رزقه، سأله الملك عن السيدة الجميلة التي استقبلته فأخبره بأنها زوجته، سكت الملك هنيهة ثم أومأ إلى وزيره بخائنة الأعين ليتولى عنه مهمة إكمال الحديث، قال الوزير:

ـ أيها التاجر الطيب..من يعش بيننا فلابد أن يخضع لقوانين مملكتنا، وقانون المملكة يرى أن الملك إذا شاء أن يضم إحدى رعاياه إلى حظايا قصره فعلى الجميع السمع والطاعة شاءوا أم أبوا..!

ـ وماذا يعنيني أيها الوزير من هذا القانون؟!

ـ ألا تفهم يا رجل؟! حسبتك لبيباً..!

ـ تعني أن مولاي الملك يريد أن يضم زوجتي إلى حظاياه ؟!

ـ نعم .. وإلا ..!

ـ وماذا بعد إلا ؟!

ـ حوكمت بتهمة الخيانة العظمى، وأخذت منك زوجتك غصباً، وصودرت كل ممتلكاتك.. أما إذا طلقتها بإرادتك ليتزوجها الملك، فستظل بين أولادك تنعمون جميعاً برضا جلالة الملك.. فكِّر جيداً أيها الرجل، وفي الزيارة القادمة سيكون في صحبتنا قاضي المدينة ليتولى إجراءات الطلاق.

خرج الملك ووزيره تاركين زوج الأميرة في هموم وكربات تئن من حملها الجبال الرواسي، دخلت عليه الأميرة فوجدته يبكي كطفل صغير يعجز أن يحمي لعبته .. هدَّأت من روعه وأخبرته بأنها تخفي في جعبتها مفاجأة للملك لم يكن يتوقعها، مفاجأة ستصرفه بكل حال عما عزم عليه .

وجاء اليوم الموعود وأقبل الملك وفي صحبته الوزير ولفيف من النبلاء وكبار الجند وقاضي المدينة ليشهدوا مراسم طلاق جميلة الجميلات لتزف فيما بعد إلى الملك، وقف الجميع في حديقة القصر

بينما جلس الملك على أريكة ذات بساط ناعم وثير، خرج إليهم زوج الأميرة واستقبلهم بترحاب ثم جلس إلى جوار الملك ونادى امرأته فخرجت الأميرة ترفل في ثياب الأميرات فبهرت الجميع بوضاءتها وأناقتها ورشاقتها وسحرها الذي يفوح من أردانها ، فنظرت خلفها ونادت أولادها الأربعة (سعد ، ووعْد ، ومُقَدَّر ، ومكتوب) خرج الأولاد فبدوا للجميع من حسن منظرهم كاللؤلؤ المنثور ضمتهم تحت جناحيها ثم دفعتهم نحو الملك وقالت لهم :

ـ هلم يا أولاد .. رحبوا بجدكم ..!

جحظت العيون ، وفغرت الأفواه ، وخرست الألسنة ، فهب الملك من جلسته واقفاً وقال:

ـ ماذا تقولين أيتها الأمة؟!

ردت بهدوء :

ـ إنما الأمة غيري يا مولاي ، لقد ولدت أميرة وسأظل أميرة مهما قسا عليّ الدهر.

ـ أنا لا أعرف في هذه البقاع ملكاً غيري فكيف تكونين أميرة؟!

ـ انظر إليّ ثانية لعلك تذكرني.. لعلك تذكر طفلتك التي كنت إذا خلوت إليها تجثو على ركبتيك لتحملها على ظهرك بعضاً من الوقت وتجد في هذا سعادة لا تجدها في كل شئون مملكتك، أتذكر يوم أن ماتت أمها ووقفتما تتناجيان بنظراتكما الثكلي عن مصيركما المجهول فما لبثت أن ضممتها إليك في أسى وقلت لها سأكون لك أماً وأباً وأخاً وصديقاً، سأصعد الجوزاء إذا رغبت، وأركب السحاب إذا أمرت، ها أنت ذا جئت تهدم حياتها، وتسلبها سعادتها، وتحرمها من أمل قضت شطراً من عمرها تكلؤه برعايتها، وتقطف من بستانها زهرات طالما روتها بدمائها وغذتها بروحها.

ارتعدت أطراف الملك ومدّ إليها يده المرتعشة وأشار بسبابته وقال :

ـ أنت ..!!

قاطعته ودموعها تنهمر على وجنتيها:

ـ نعم يا مولاي .. أنا ابنتك ، أنا الأميرة "نور الصباح" .

لم يتمالك نفسه جرى نحوها وضمها إلى صدره ودموعه تسيل على وجنتيه، وأزيز صدره المكلوم يشق عباب الصمت المخيم على المكان، وانطلق لسانه يجأر بالحمد والثناء لرب الأرض والسماء على عودة ابنته الأميرة للحياة من جديد، وانطلقت الأفراح والأهازيج في المدينة أربعين يوماً تتوافد فيها الوفود إلى القصر لتهنئة الملك على سلامة الأميرة وعودتها للحياة ولحضن أبيها بعد مرور عشرين عاماً.

******